حياد السارد و الرؤية المُفارِقة
قراءة في رواية: l'attentat لياسمينة خضرة

الأستاذة : بن صالح نوال
قسم الأدب العربي
كلية الآداب و اللغات
جامعة محمد خيضر –بسكرة (الجزائر)

ملخص:

يتناول هذا البحث تقنية المفارقة في السرد الروائي الجزائري، ويختار الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية مجالا للدرس. سيما أنّ أعمال الروائيين الجزائريين المعاصرين لا تزال بعيدة عن الدرس النقدي العربي من جهة،و درس فن المفارقة في الرواية من جهة أخرى.

Résumé:

Cet article a pour objet la technique de l'ironie dans le roman algérien d'expression française spécialement le roman contemporain qui reste très loin de la critique arabe d'un coté et loin de l'analyse de l'ironie d'un autre coté.

تمهيد:

تميزت فترة التسعينيات من القرن الماضي إلى أوائل عشرية القرن الحالي من تاريخ السرد الروائي الجزائري، بأنها كانت نقطة انطلاق جديدة تتلاقى فيها مفاهيم حديثة للكتابة والمفارقة على حد سواء. فصحيح أنّ الكتابة الروائية قبل هذا التاريخ [بالعربية كانت أم بالفرنسية] لم تهمل تقنية المفارقة في بناء السرد الروائي، إلا أنها قامت على مفارقات جزئية وهو ما استمر في النتاج الروائي الجزائري إلى الثمانينيات باستثناء بعض لحظات مضيئة لنصوص فردية صنعها روائيون قلائل،

فأبدعوا نصوصهم الروائية على رؤية مُفارِقة و اتخذوها إستراتيجية في السرد الروائي .

و لعل هذه المفارقة الروائية في المراحل الأولى من السّرد الروائي الجزائري كانت بمثابة أداة تغريبية أي أنها نازعة للمألوف الاجتماعي الذي اعتاده القراء . لكن مفارقة السرد و ابتداءً من التسعينيات . سيما في السرد الجزائري المنجز باللغة الفرنسية . صارت رؤية حقيقية للعالم، و عنصرا مهيمنا على الكتابة الروائية .

و تقوم هذه الدراسة حول حقيقة أنّ ياسمينة خضرة من أبرز الأقلام الجزائرية التي تكتب بالفرنسية و التي اتخذت المفارقة استراتيجية في السرد الروائي. فالمفارقة في رواياته كان لها كبير الأثر لا في تشكيل النص و بنائه فحسب، بل أيضا في تحديد أفقه الفكري و الفلسفي. فالمفارقة عنده استراتيجية

فكرية و سردية في الوقت نفسه، تحاول أن تفهم مجتمعا و عالما يستعصي على الفهم.

إنّ ما دفعنا إلى الخوض في مثل هذا الموضوع البكر، دافعان:**الدافع الأول:** أنّ الاستجابة النقدية للمفارقة . في السرد الروائي بصفة خاصة . تكاد تكون معدومة في أدبنا العربي عدا بعض المحاولات الرائدة و الجادة ، كجهود سيزا قاسم ونبيلة إبراهيم وحسن حماد. أما **الدافع الثاني:** فهو حساسية الأقلام النقدية الجزائرية التي تتلقى الإبداع باللغة العربية،حساسيتها في التعاطي مع الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية. والحقيقة أنها ليست مشكلة جزائرية فقط إنها مشكلة مغاربية و نتاج سيطرة لغة المستعمر لفترات طويلة من الزمن على بلدان المغرب العربي . والغريب أنّ مشكلة الأدب المغاربي . ومنه الجزائري . المكتوب بلغة المستعمر القديم لا تزال مطروحة ليس بسبب اللغة فقط ، و إنما بسبب النظرة الجاهزة المُدينة لكلّ ما كتب بلغة الآخر حتى و لو لم يكن الأمر اختياراً من الكاتب. الأمر الذي تسبّب في شبه قطيعة فيما بيننا و بين البلدان العربية في المجال الثقافي والأدبي بشكل خاص . ليس هذا فحسب بل إننا نشكو من ضعف التواصل الأدبي بيننا حتى داخل الوطن الواحد. هذا في الوقت الذي أصبحنا فيه نعيش في عالم يشبه القرية الصغيرة.[1]

إضاءة لمصطلح المفارقة:

تحتاج المفارقة في صناعتها إلى مهارة لغوية خاصة كما تحتاج إلى إحكام بالغ الدّقة للعلاقة بين الشكل و الوظيفة أو بعبارة أخرى بين المقال

و المقام[2]. و هذا بالضبط ما تقوم به المفارقة الروائية . و المفارقة واحدة من الإمكانات الأسلوبية التي تقدمها خطابات مختلفة في التواصل اللغوي. فهي تعرض طريقة من طرائق استخدام اللغة في السياق النصّي و السياق الخارج عن النّص[3]. و تنعقد بنية المفارقة على علاقة التضاد أو الازدواجية بين المنطوق اللفظي و بين الدلالة المُحَوَّلة التي يرشحها السياق . و لعل من الصعوبة الإمساك بمفهوم المفارقة ، و السبب أنه مفهوم يتطور

و يتسع من جهة ،ثم أنّه مفهوم يتشابك مع كثير من أشكال التعبير الفني بدرجة أو بأخرى يصعب فصلها. هذا التشابك حدث في النقد الغربي بقدر ما حدث في النقد العربي[4]. فالمفارقة تقترب من حدود المجاز و التعريض

و التضاد و تجاهل العارف والانقلاب و الهزل و غيرها من أساليب البلاغة، و لقد ظلت فعاليات المراوغة تصنع فعلها في صعوبة إدراك المفارقة. لكنها تبقى من أقوى أدوات كسر أفق توقع القارئ أو المتلقي ذلك أنها تقوم بالأساس على الدهشة.

و في تأملنا لعلاقة المفارقة بالأدب نجدها محاطة بكثير من التساؤلات الملّحة التي كانت وماتزال مثار خلاف بين نقاد الأدب و الفن. هل المفارقة ضرورية للصناعة الأدبية كما أوضح بعض منظريها؟[5] و هل هي استراتيجية أدبية تتصل برؤية الأديب أم هي تقنية أدبية ليس غير؟ هل توجد المفارقة في جميع النصوص الروائية أم في بعضها فقط؟ و ما هي صفات النص الروائي الذي يحتوي على المفارقة؟ [6]

يذهب ميويك إلى أنّ أهمية المفارقة في الأدب أمر لا يحتمل الجدل غير أنّ ما يحتمل الجدل حقاّ هو كيفية اتصاف الأدب بالمفارقة.[7] أما نبيلة إبراهيم فتُرجِع بدء وعي الإنسان بالمفارقة إلى قصّة الخلق ، قصّة آدم

و حوّاء في الجنّة و هبوطهما منها.و فكرة الخلط بين القبح و الجمال التي وقعا فيها ، حيث أكلا ثمرة جميلة المظهر قبيحة المخبر.[8] و لقد تحققت المفارقات من خلال اللغة و هي اللغة ذاتها التي أورثها آدم نسله فيما بعد، فكانت منذ القدم اللغة الملازمة لفكر الإنسان و المعبرة عن موقفه من المفارقات بين المحدود و اللامحدود.و إذا كانت نبيلة إبراهيم تؤكد تشابك المفارقة مع العديد من أشكال التعبير الفني ،فالمفارقة خليط من فن الهجاء وفن السخرية و فن الجروتيسك[9] و فن العبث و الفن الضاحك، إلاّ أنها تؤكد أنّ المفارقة عندما تحتاج إلى قدر من كل هذه الفنون ،فإنّ كلاّ منها يبتعد عن استقلاليته ليؤدي مع غيره دورا جديدا.[10] و مع هذا تحدد نبيلة إبراهيم معالم وجود المفارقة في النص الأدبي بوجود أربعة عناصر:

أولا: وجود مستويين للمعنى في التعبير الواحد. المستوى السطحي للكلام والمستوى الكامن الذي لم يعبر عنه ، و الذي يلح على القارئ لاكتشافه إثر اتسامه بتضارب الكلام.

ثانيا: لا يتم الوصول إلى إدراك المفارقة إلاّ من خلال إدراك التعارض أو التناقض بين الحقائق على المستوى الشكلي للنص. و قد يُحدث هذا الإدراك حالة من البلبلة لدى القارئ.

ثالثا: غالبا ما ترتبط المفارقة بالتظاهر بالبراءة ، و قد تصل إلى حد التظاهر

بالغفلة والسذاجة.

رابعا: لا بدّ من وجود ضحيّة في المفارقة . و قد تكون أنا الكاتب هي الضحية و قد تكون الضحية آخر ما.

فالمفارقة في النص الأدبي المعاصر وفي الرواية خاصة، صارت جزءًا رئيسا فيه حيث باعتبارها عنصرا مهيمنا على الكتابة الروائية التي تحولت من اتجاه يقوم على محاكاة الواقع إلى اتجاه يقوم على المفارقة.[11]

قصة الكتابة بالاسم المستعار :

ياسمينة خضرة اسم مستعار لضابط سام سابق في الجيش الجزائري ،اسمه الحقيقي محمد مولسهول مولود سنة 1955 بالقنادسة ببشار. نشأ في أسرة بسيطة كان والده ممرضا، أما والدته فمن البدو الرحل. تلقى تعليمه في مؤسسة تابعة للجيش الجزائري هي المدرسة الوطنية لأشبال الثورة بالقليعة [Ecole nationale des cadets de la révolution] التحق بهذه المدرسة في سن التاسعة[12]. و في سن الثامنة عشر أتم كتابة روايته الأولى "حورية" التي لم يكتب لها أن ترى النور إلا بعد إحدى عشر عاما من ميلادها. قام بنشر أعماله الأدبية لسنوات طويلة دون أن يكشف عن اسمه الحقيقي. و بعد ست و ثلاثين سنة في الجيش تقاعد برتبة سامية [Commandant]سنة 2000. و بعد التقاعد انتقل و أسرته المكونة من زوجة و ثلاثة أطفال إلى المكسيك ، و قرّر أن يكرس وقته كلّه للكتابة . و في جانفي 2001 توجه إلى فرنسا، و في السنة نفسها نشر روايته "الكاتب" و اختار هذه المناسبة فرصة

للإفصاح عن اسمه الحقيقي للجمهور والصحافة . يشغل حاليا منصب رئيس المركز الثقافي الجزائري بباريس. من أشهر أعماله نذكر:

بما تحلم الذئاب 1999 A quoi rêve les loups

الكاتب 2001 L'écrivain

سنونوات كابول 2002 Les Hirondelles de Kaboul

القريبة ك 2003 Cousine K

صفارات بغداد 2006 Les Sirènes de Bagdad[13]

نال عديد الجوائز عن جل أعماله التي حظيت بشهرة عالمية و ترجمت إلى أكثر من عشر لغات و الغريب أنّ عملا واحدا فقط من أعماله تُرجم إلى العربية و هو "الكاتب"من أقواله:" جميع الكتاب سيدخلون الجنة، لأنهم عندما كانوا أحياء تحملوا جحيم الإنسانية."[14]

Tous les écrivains vont au paradis, puisque vivants, ils portent l'enfer des hommes

و في حوار أجرته معه "الشرق الأوسط"[15]يقدم ياسمينة خضرة نفسه على النحو الآتي:" أنا جزائري مسلم ،أقيم الصّلاة و أنهى عن الفحشاء و المنكر. واخترت الكتابة لأوصل الفكر العربي إلى أقصى مدى..." و ردّا عن سؤال اختياره الفرنسية لغةً للكتابة قال:" كنت أكتب بالعربية لكنني لم ألق التشجيع من أساتذتي الذين درسوني العربية، و عندما كنت أعرض قصيدة على أحدهم ألاقي الشتم منه. في حين أنّ السيد دافيس أستاذ اللغة الفرنسية شجعني و اهتم

بكتاباتي. اسمي محمد مولى السهول ،فأنا من قبيلة عربية ترجع أصولها إلى مكّة المكرمة ، استوطنت الصحراء الجزائرية منذ تسعة قرون . و إجابةً عن سؤال كيف يتاح للمرء اسم جميل مثل محمد مولى السهول،ويسمي نفسه باسم آخر. يقول:" في عام 1989 أحالتني قيادة الجيش الجزائري إلى لجنة رقابة لأنني نشرت باسمي الصريح. فلما فرضوا عليّ الرقابة اقترحت زوجتي أن أكتب وأنشر باسم مستعار. و بسبب شجاعتها قرّرت أن أكتب باسمها.[16]

انسجام المفارقة و معانقة العنوان للنص

كثيرا ما يولي الدارسون و النقاد موضوع التلاحم بين مستويي الشكل والمضمون في العمل الأدبي عناية خاصة، يقيسون من خلاله درجة نجاح مبدعه، وبالتالي الوصول به [أي النص] إلى درجة الإدهاش[17].

و لأنّ المفارقة هي البداية الحقيقية للوجود الإنساني الأصيل ،فهي تأخذ على عاتقها تحرير الإنسان من سيطرة الآراء السّائدة ، و الأفكار المتعارف عليها لتنتشل الذات من ضياعها، و فقدانها لنفسها وسط الفلسفات السائدة و الأحداث المتضاربة[18]. و قد تشكلت استراتيجية المفارقة التي قامت عليها اللغة السّاردة ، كما قامت عليها مجموع المواقف والأحداث الرّئيسة في الرواية من خلال محورين أساسين يشكلان النطاقين الرئيسين لمجالات المفارقة أو مداراتها في رواية:" الاعتداء"[19] و هما: مفارقة العنوان ومفارقة الأحداث، و بذلك يتحقق انسجام المدارين في جمالية السرد.

1/مفارقة العنوان:

لا نريد اجترار ما تردده جميع الأبحاث التي تحاول مقاربة العنوان من تفصيل في المعاني المعجمية و الاصطلاحية ،نحسب أنّ الأمر صار معروفا لدى جل الباحثين و المهتمين بحقل العنونة، و إنما نركز على بعض الإضاءات التي تسهم . لا محالة . في تعضيد الدّرس التطبيقي للرواية. و قبل البدء بمقاربة شؤون العنونة في رواية"l'Attentat " يمكننا تقديم تأطير تعريفي يحاول أن يستجلي بعض المفاهيم المرتبطة بحقيقة العنوان و بأهميته بالنسبة للنص. فالعنوان علامة لغوية تتموقع في واجهة النص لتؤدي مجموعة وظائف عديدة. فمن حيث هو تسمية للنص و تعريف و كشف له ،يغدو علامة سيميائية تمارس التدليل وتتموقع على الحد الفاصل بين النص و العالم.

و هكذا فالعنونة في تبنّيها أصبحت تمتلك استراتيجية تنخرط ضمن الاستراتيجية العامة لفعل الكتابة نفسه، و ذلك بالتواصل الفعّال من المتلقي من جهة و تأسيس كينونة خاصة بها من جهة أخرى . و تستند هذه الاستراتيجية على آليات: التكثيف الدلالي،و الإثارة،والتناص و المفارقة،

و أحيانا تفعيل البعد البصري لمواطن العنونة. و بشكل عام فإنّ على العنوان أن يثير تساؤلا ويكسر أفق انتظار ما. فليست العناوين الروائية دائما تعبر عن مضامين نصوصها بطريقة واضحة، بل نجد العناوين الغامضة المبهمة،وعلى القارئ أن يبحث عن العلاقة بين العنوان والنص. لذا يفترض أن يكون العنوان من أهم عناصر النص الموازي و ملحقاته الداخلية نظرا لكونه مدخلا أساسيا في قراءة الإبداع الأدبي بصفة عامة و الروائي بصفة خاصة. لكن لا يجب أن يُفهم من ذلك أنّ العنوان مجرد اسم يدل على العمل الأدبي ، يحدد هويته، و يكرس انتماءه لأدب ما.

ثم إنّ اختيار الروائي العنوان واجهة إشارية دلالية لا يمكن أن يكون اعتباطيا، فلا بدّ أن يمتلك بوصفه علامة دالة ،بعدا إيحائيا للمدلول، و قد جعله بعض النقاد مرادفا للاسم المؤشر لطبيعة الأشياء .[20] بل إنّ عنوان الرواية و طريقة بناء الشخصيات و النتائج التي تفضي إليها الأحداث تسهم جميعها بصورة أو بأخرى في بناء منظور الكاتب، و عقيدته العامة مهما بدا محايدا.

إذا تنبثق أهمية العنوان في كونه بوّابة غير محروسة بإحكام،و بإمكان القارئ أن ينسلّ منها إلى النص. و لهذا تبرز استراتيجية العنونة ليس في كون العنوان نصّا جماليا فحسب، لكنّ العنوان بالنسبة إلى نصّه اللاحق يوجد في وضعية مفارقة. عليه أن يخبر و أن يبقى محدود الإخبار في الوقت نفسه على رأي ليو هوك léo Hoek يفجر العنوان في رواية " الاعتداء" حدثا كبيرا هو بداية الرواية ومحورها و سبب الصراع فيها ، و الاعتداء هو أيضا التيمة العامة للنص ، فهو بذلك المحرك لكل مراحل السّرد . كما أنه المفارقة الأولى التي اختارها الكاتب ليحاور قارئا ذكيا مثقفا، يفكر فيما يدور حوله من صراعات و حروب .والعنوان بدوره يحيل إلى مفارقتين:

المفارقة الأولى: ينذر العنوان "الاعتداء" بخطر داهم، و بذلك يتحول العنوان إلى لافتة إنذار. و ما يعضّد هذه الفرضية هو صيغة المركب الاسمي الذي عادة ما يدل على السكون والمركب الإفرادي الذي يحدد الحدث [الاعتداء واحد]. لكن المفارقة أنّ لا المركب الاسمي يدلّ على السكون أو الثبات،ولا المفرد يدل على التضييق أو التحديد. فالمركب الاسمي :"الاعتداء" تحيط به هالة من دلالات الحركة و الصخب و تحاصره من كل جانب [الانفجار/الدم/الموت/الخسائر/الأشلاء...] وجميع التشظيات التي توحي

بفوضى المكان و عنف اللحظة [لحظة الاعتداء] . أما صيغة المفرد "الاعتداء". باعتباره حدثا واحدا . لا تحدد الحدث بقدر ما تجعل من الاعتداء هو المحرك لأحداث الحكي جميعها و لتبعات الحدث الجسيمة . إنها مفارقة لفظية تتضافر فيها كثافة اللفظ و إيجازه لتجعل العنوان يحقق ما يسمى بدهشة المفارقة.

المفارقة الثانية: يبقى العنوان مبهما ، رغم اندراجه ضمن العناوين الأكثر وضوحا واتصالا بالنص .وهو ما يطلق عليه وصف العناوين الواقعية . ومرجع غموض العنوان . بالرغم من وضوحه في الظاهر . إلى قصدية الكاتب في الاكتفاء بجعل العنوان لفظةً واحدة ، صاخبة رغم صمتها ،محملة بالهموم رغم إيجازها. اكتفى الكاتب بلفظة غير موصوفة و لا معضّدة بإضافة ولا بلفظ أيّا كان. رغم أنّ اللفظ نفسه كثير الترديد ،فلا تكاد تخلو نشرة أخبار من:" عملية /هجوم/اعتداء/تفجير..." واللفظ يتردد . عادة . مقترنا بأوصاف بعينها:"الاعتداء الإرهابي/ العملية الانتحارية/ العملية الاستشهادية terroriste Attentat suicide kamikaze [21] . انطلق الكاتب في استراتيجيه العنونة من موقف حاول أن يسِمه بطابع الحياد ليقول من البداية إنه لا يريد أن يدخل في جدل الموقف السياسي والإيديولوجي إذ أنّ أيّ وصف لطبيعة الاعتداء سيكون موقفا مسبقا و سوف يغلق آفاق القراءة أويحددها على نحو ما . يعترف ياسمينة خضرة بهذا القصد:" عندما كتبتُ "الاعتداء" حاولت أن أذهب أبعد من الأزمة، و أبعد من الشر نفسه، فأنا أعتقد أنّه ليس من وظيفة الكاتب أن يكون حكما أو قاضيا يحاسب على الأخطاء والنقائص. بل من الواجب عليه أن يكون مقياسا للزلازل التي يتسبب فيها الإنسان..."[22] إنّ جعل العنوان بهذا الغموض/الوضوح يفجر المفارقة من أوّل كلمة اختارها الكاتب عتبة أولى للنص الروائي . إنّه يريد

و منذ البدء ألاّ يجيب عن الأسئلة القاتلة ليطرحها بدوره على القارئ إنه يريد أجوبة شافية من القراء أنفسهم متمثلة في حيرة البطل على مدار أحداث الرواية . والأسئلة عديدة: هل هي عمليات استشهادية أم انتحارية؟ هل هو إرهاب أم دفاع مشروع عن النفس؟ هل القتلى من الأطفال أبرياء أم مغتصِبون؟ أين الحدود بين الانتحار و الشهادة؟ هل نجيب عن الشر بالأسلوب نفسه؟ . من هنا يصير العنوان المحرك الفعلي لأحداث الرواية ذلك أنه يعانق تفاصيلها حتى نهايتها . هذه الكثافة المختزلة لعشرات المعاني والدلالات التي يكتسيها إيجاز العنوان جعلته يجمع مزايا عديدة أهمها: "تشخيص الذات و الواقع/الاختصار/الوضوح و الغموض/ الدّقة/ارتباطه بالنص مباشرة/ الكثافة/الاستباقية للأحداث/و المفارقة".

فالعنوان تتجاذبه الثنائيات المتعارضة و التي تفجر المتناقضات على النحو الآتي:

الاعتداء/ L'attentat:

1- إرهاب 1- دفاع عن النفس 1- الموت في الدنيا

2- جهاد 2- قتل الآخر 2- الخلود في الجنة

من هنا استطاع الكاتب و ببراعة أن يجعل من العنوان واجهة مثيرة للجدل حتى قبل القراءة، إنها عتبة منذرة لدهاليز الرواية و هذا ما تسعى المفارقة إلى تحقيقه.

2/مفارقة الأحداث:

مفارقات الأحداث هي تلك الناتجة عن تعارض بناءات الأحداث مع بعضها البعض وهذا النوع من المفارقة يتحقق من خلال التضاد بين حدثين أو أكثر ،كلٌّ منهما مستقل عن الآخر و إن كانا يرتبطان معا في عمق النسيج الروائي بحيث لا يستطيع أيّ من الحدثين توليد المفارقة إلاّ في وجود الآخر.[23] في " الاعتداء" ينتقل الكاتب من هموم وطنه الجزائر ، و مآسي العشرية الحمراء إلى هموم بلد عزيز ، فلسطين ما يوحي بآفاق جديدة حول انفتاح الكاتب الجزائري . و الذي كان إلى وقت قريب مهموما بمشاكل الجزائر لا غير . انفتاحه على هموم أخرى قد تكون بعيدة مكانيا ،لكن المأساة العربية /الإسلامية تبدو متشابهة الملامح رغم اختلاف التقاطيع .

و ياسمينة خضرة قلم من الأقلام الجريئة التي استطاعت أن تحكي هموم الآخر بشكل يثير الدهشة . كتب عن كابول و عن بغداد و ها هو يكتب عن الجرح الأكبر فلسطين.

بطل الرواية:" أمين جعفري" طبيب جراح ناجح ،يمارس مهنة الجراحة في مشفى بتل أبيب، هو عربي يحمل الجنسية الإسرائيلية مثله مثل مئات الآلاف من عرب 1948 و الذين اختاروا البقاء في إسرائيل بعد النكبة . أمين يبدو منسجما مع زملائه من اليهود رغم بعض التحسس من كونه عربي الآباء و الأجداد. لكنه يعيش حياة مستقرة وسعيدة، سيما أنّه مرتاح ماديا إلى حدّ كبير هذا إلى جانب حياة هنيئة يسودها الانسجام و التفاهم مع زوجة فلسطينية اختارها هي:" سهام" . ذات يوم وهو يمارس عمله كالمعتاد . يهز انفجار ضخم الشارع المقابل للمشفى حتى أنّ آثاره تطال شبابيك المشفى

و جدرانه . و كالعادة في مثل هذه الحوادث يصير المشفى في حالة استعداد

قصوى وتطلق صفارات الإنذار لاستقبال الجرحى و المصابين بالصدمات النفسية و حتى القتلى. يقضي أمين اليوم كلّه في غرفة العمليات إلى منتصف الليل ، و حين تخور قواه يقرر العودة إلى البيت آملا في اختلاس هدنة راحة من المشرط و الأشلاء . في الطريق توقفه الدوريات الكثيرة ويخضع للتفتيش الدقيق و لنظرات الريبة التي تطفو على ملامح رجال الشرطة كلما وقعت أعينهم على اسمه العربي رغم جنسيته الإسرائيلية.

و بعد عناء كبير يصل أمين إلى فيلته الجميلة في الحي الراقي ،ويفاجأ بعدم عودة سهام من زيارتها لجدتها في:" كفر قانا "، كان من المفترض أن تعود اليوم مبكرا ثم أنها نسيت هاتفها الخلوي في البيت كعادتها . لكنه مرهق جدا فيقرر أن يأخذ قرصا منوما لعلّه يمن عليه بإغفاءة شبه مستحيلة بعد بشاعة مناظر غرفة العمليات . بعد قليل يرن جرس الهاتف يتردد أمين في الرد ثم يتناول السماعة. على الطرف الآخر صوت يدعوه للالتحاق بالمشفى فورا ، يتحجج أمين بعدم قدرته على الإمساك بالمشرط مرة أخرى ، لكنّ الصوت في الطرف الآخر يلح عليه بالمجيء. يوافق أمين لكنه يشترط تبليغ الدوريات بمروره حتى يتجنب الإهانات السابقة. يصل أمين إلى المشفى فيسأله:"نافيد" سؤالا مفاجئا غريبا: هل زوجتك في البيت؟" و يجيب أمين بالنفي . يأخذه الرجل إلى غرفة الموتى ،يتردد نافيد قليلا ثم يكشف له الغطاء عن جثة. بلا أشلاء مقطعة، لم يبق منها إلا الرأس سليما. هنا يصدم أمين صدمة حياته إنها سهام زوجته، الملامح واضحة لا مجال للشك. تتدافع التساؤلات في دماغ أمين المرهقة أساسا: ما الذي أتى بها إلى المطعم الذي حدث فيه الانفجار؟ لماذا لم تتصل به بعد عودتها؟ يصدم صدمة أخرى عندما يعلم أنها منفذة العملية ، و أنها كانت تحمل حزاما ناسفا . يرفض أمين أن يصدق هذا الهراء رغم تأكيد

الطب الشرعي أنّ تقطيع الأوصال بهذه الطريقة لا يكون إلا في جسد حامل الحزام، ثم الشهود الذين تعرفوا على سهام و كانت تخفي المتفجرات تحت ثوب تلبسه الحوامل. أمين لا يصدق.. لكن بعودته إلى البيت يتلقى رسالة بالبريد من بيت لحم إنها من سهام يتعرف على خطّها. الرسالة تقول:" ما جدوى السعادة عندما لا يتقاسمها الجميع . عزيزي أمين، فرحتي كانت تنطفئ كلما وجدتك لا تشاركني إياها. كنت تريد أطفالا أما أنا فلا أستطيع أن أمنح الحياة لطفل ليس له وطن ،طفل بلا وطن لن يكون في مأمن أبدا... أرجو أن تغفر لي"[24] تُسائل الحقيقة فيه كل القيم التي آمن بها و كلّ ما اعتقد أنه يعرفه حق المعرفة و كلّ مبادئ الضمير الإنساني .فيبدأ أمين رحلة البحث عن الأجوبة التي تدخله في عوالم لم يعرفها يتعرف على فدائيين لا يشغلهم إلا الوطن ولا يبحثون إلا عن رد الاعتبار للقضية إنها أهم من الحياة نفسها .

لم يكن لمثل هذا الموضوع المثير من بنية مناسبة تحتضنه أحسن من بنية المفارقة. فالمفارقة جاءت استراتيجية شكلت مجموعة الأحداث الرئيسة في الرواية ، واكتسبت المفارقة بذلك دور العنصر المهيمن الذي يشكل البنية الفنية في الرواية وضمن تماسكها و تلاحمها العام. أمين جعفري إذاً الشخصية المحورية في الرواية، و ما يرد في النص من شخصيات أخرى [كيم يهودا/عزرا بن حاييم/ نافيد/إلان روس/ليلى/ياسر/الشيخ مروان/عادل/وسام/فاتن...] يجيء ليخدم الشخصية المحورية ومن هنا فإنّ مجموعة الأحداث و المواقف في الرواية تأتي لتشكل حركة متتالية بين المدّ و الجزر ،بين الاقتراب و الابتعاد عن الوصول إلى الهدف، و تحقيق غاية البطل في البحث عن الحقيقة. و قد رأينا كيف تمكن الكاتب من إفراغ العنوان [المستوى الأول] من مضمونه السياسي أوالإيديولوجي المتداول

و الذي يثير لغطا كبيرا ليناقش القارئ و يتبادل معه التساؤلات و الحيرة دون أحكام مسبقة أو مسلمات جاهزة.

أماّ على محور النص [أو المستوى الثاني] و هو مستوى الأحداث ،فيمكن القول أنّ الكاتب استطاع أن يبعدها عن الأحكام المسبقة المُدينة و غير المُدينة لمجموع الأحداث التي نتجت أصلا عن واقع يقوم على مفارقات الأحداث التي زُجّ بالبطل فيها دون أن يكون له مجال للاختيار . هذه المواقف عملت على عرض الواقع البشع و تعرية الحقيقة فيه مهما كانت صادمة.و جاءت هذه الأحداث و المفارقات مرتبطة ارتباطا عضويا

و مباشرا بشخصية أمين جعفري .و سرد مستفز لا يريح القارئ أبدا

و يخاطبه بما لا يريد أن يسمع هذا القارئ العربي الجريح لجرح فلسطين الذي لا يريد أن يسمع لغة السلام بين العرب و إسرائيل ،لغة صارت قديمة مخزية نعم هو يبكي عندما يرى الاستشهاديين يقرؤون وصاياهم الأخيرة ويتحسر على شبابهم لكنه في الوقت نفسه يشعر بفرحة المتنقم لشرفه إنه لا يريد أن يتألم لأطفال العدو فأطفالنا يموتون كل يوم .يردد قول الشيخ ياسين: ارفعوا أيديكم عن مدنيينا نرفع أيدينا عن مدنييكم.حتى لو لم يكن حمساويا و لا جهاديا. أمين لم يكن يبالي بالقضية .يريد أن ينتقم ممن جند زوجته لتكون مشروع قنبلة و فقط. و هكذا يجعلك الكاتب تقرأ ببغض وحنق و ترد على البطل في كل مرة يجرؤ فيها على إدانة الفدائيين. فالقارئ يكاد يتحول هو نفسه ضحية للمفارقة[القارئ العربي على الأقل] بل هو كذلك إلى آخر الرواية حين يقتل البطل في عملية نفذها الجيش الإسرائيلي وحينها يدرك أمين أن منفذي العمليات لا يحبون الموت و لكنهم لم يجدوا إلى الحياة الكريمة سبيلا فاختاروا

حياة أخرى لا بد أنها ستكون أجمل أو أقل قسوة. و يمكن الوقوف عند الأحداث المحورية التي انبنت عليها المفارقة والتي شكلت منعطفات أساسية في الرواية على النحو الآتي:

أولا: حياة أمين في إسرائيل ،إسرائيل التي احتلت بلده فلسطين و جرّدته من هويته العربية لتمنح له الجنسية الإسرائيلية ،جنسية المغتصب. تكمن المفارقة هنا في طبيعة الحياة نفسها التي يعيشها أمين و غيره من عرب إسرائيل ،إنهم مرفوضون عربيا، ومشكوك في أمرهم إسرائيليا. إنه واقع قائم على الصراع و التناقض بدأ مذ قرر أجداد أمين و غيره عدم ترك بيوتهم للأعداء رفضوا الهجرة و اختاروا العيش في بلادهم حتى و لو كانت الحياة تحت مظلة الأعداء . أمين عربي ابن وحيد لشيخ قبيلة بدوية ما كان يحلم إلاّ باليوم الذي يرى فيه أمين طبيبا ناجحا. و أن تكون عربيا وتنجح في إسرائيل ليس بالأمر الهين . لم تكن طريقه سهلة ما كان مطلوبا من شاب عربي مثله عشرات الأضعاف مما يطلب من شاب إسرائيلي يهودي ،كان عليه أن يثبت ذاته و أن يقنع بجدارته بشهادة الدكتوراه في الجراحة ،وأن يتلقى الضربات دون أن يرد: Le diplôme ne résolvait pas tous il me fallait séduire et rassurer encaisser sans rendre les coups[25]

وجد نفسه يمثل العرب في إسرائيل ، فكان عليه أن ينجح من أجلهم أيضا: Je m'étais surpris en train de représenter ma communauté dans une certaine mesure. Il me fallait surtout réussir pour elle [26]

من جهة أخرى هو عربي لكنّه عاش و تربى في إسرائيل، و تعلم في مدارسها

، وتخرجّ من أكبر جامعاتها ، ثمّ هو يمارس مهنة الطبّ في أكبر مشافي تل أبيب،المهنة التي أحبّها و تفوّق فيها . فأيُّ نوعٍ من الانتماء سيشعر به أمين؟ انتماء إلى وطن هلامي تآمرت على قتله أطراف كثيرة؟ أم إلى وطن حقق فيه أحلامه ،لكنه محتل، مغتصب و قاتل..؟

ثانيا: يحوّل حدث الاعتداء" أمين" من شخص لا مبالٍ بالقضية و لا بالسياسة إلى إنسان كأنه اكتشف فجأة أنّه عربي ، و أنّ العروبة تهمة في إسرائيل رغم جنسيته الإسرائيلية ، ويوضع في امتحان صعب عسير، يكتشف عنف جيرانه من الإسرائيليين كأنّه يتعرف عليهم للمرّة الأولى، يتعرض للإهانة والضرب و حتى محاولة القتل لولا تدخل زميلته القديمة كيم يهودا . بعد الاعتداء تعلق على جدار بيته لافتة كتب عليها بالخط العريض:"الوحش الرهيب يعيش بيننا LA BETE IMMONDE EST PARMI NOUS[27]. :"اثنان من اليهود الملتحين يبصقون عليّ يدفعونني بقوة: أهكذا تقولون شكرا عندكم أيها العربي الوسخ. أهكذا تقبلون اليد التي تمتد لتنتشلكم من القذارة؟" Deux barbus nattes me crachent au dessus des bras me bousculent :c'est comme ca qu'ont dit merci chez vous sale [28]Arabe.

جميع هذه الأحداث تفجر المفارقات و المتناقضات الداخلية و الخارجية.

ثالثا: لا تقوم المفارقة على التضاد و التناقض بين الأحداث فحسب، بل لا بد أن يتحقق نوع من الوحدة و الانسجام بالرغم من المفارقة. في المنعطف الثالث للأحداث نجد أمين جعفري غاضبا، شاعرا بخيانة زوجته له ،و يحاول بكل السبل أن يجد جوابا شافيا لأسئلته المحيرة . يقوده فضوله– لمعرفة الحقيقة–

إلى **جنين** معقل المقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلي ، في هذا المكان يتعرف البطل على عالم آخر، عالم المقاومين و الفدائيين ،شبابا في زهرة العمر يستعدون للموت في أية لحظة ،يعيشون في مخيم لا يصلح للحياة الآدمية تتفجر المفارقة عندما يشعر أمين بالفرق بين مدينته الجميلة ببناياتها الفارهة و شوارعها النظيفة و هذا المكان البائس الخارج عن التاريخ. يحاول أمين أن يعثر على القائد الذي جند سهام لتكون مشروع قنبلة فيقتص منه . يرميه القائد في حفرة قذرة ستة أيام ويذيقه شيئا من العذاب و الإهانةُ ثم يواجهه بقوة و يسلمه مسدسا ليطلب منه أن يقتله إن كان يريد ذلك حقا. يقول له: [أردتِ أن تدرك لماذا حملنا السلاح...لماذا جعلت سهام من جسدها قنبلة انفجرت. ليس هناك أقسى من أن تشعر بالإهانة]

J'ai voulu que tu comprennes pourquoi nous avons pris les armes… pourquoi ton épouse est allée se faire exploser dans un restaurant. il n'est pire cataclysme que l'humiliation [29]

في خضم هذا الواقع الجديد الذي يواجهه أمين يقرر زيارة بيت عمه القديم و هناك يحن إلى طفولة بعيدة .كأنه أراد أن ينساها في رحلة تحقيق ذاته، فيقع على حقيقة واقع المقاومة المرير والفقر و الذل و هدم بيوت الشهداء و القتل اليومي و الجدار العازل. و فجأة يجد تفسيرا لفعل سهام، نعم لقد نشأت بين هؤلاء المقهورين لا بد أنها كانت تحمل حقدا كبيرا في داخلها، و شرفا جريحا حاولت أن ترد اعتباره. فجأة أدرك أنها عاشت يتيمة و عربية في مجتمع لا يرحم اليتم ولا يقبل العروبة.

خلاصـة:

يمكن القول أنّ الموضوع المتفجر الذي اختاره الكاتب . قضية العمليات الانتحارية في أرض مغتصبة . و محاولته أن يصاحب البطل في رحلة بحثه عن أجوبة عن الأسئلة المستحيلة لوضع غير متوقع ، جعل المفارقة أساسا في رؤية الكاتب و بنائه للنص الروائي هذا إلى جانب استحالة حياده في تعاطيه مع موضوع الحكي،مهما حاول أن يبدو محايدا. ثم أنّ الذات المبدعة في العمل المبني على المفارقة تتحول إلى ذات لغوية بشرط ألاّ تكون اللغة مجرد لغو[30] بل لا بدّ أن تكون الذات اللغوية مُدرِكة بوضوح للتجربة ،بحيث لا تترك زمام اللغة يفلت منها بل يظلّ محتفظا على الدوام بذلك البصيص الذي يُمَكِّن القارئ من أن يبقى أسير حركتها . و هكذا يتحقق التوازن على المستوى الكلي للعمل الإبداعي. لتكون المفارقة ليست مجرد وسيلة بلاغية ، بل تتحول المفارقة إلى أداة مراوغة و لعبة بين الكاتب [صانعها] و القارئ [مستقبلها] يتحقق من خلالها التواصل في أذكى أشكاله.

الهوامش والمراجع

[1] ينظر رأي مخلوف عامر في:الرواية و التحولات في الجزائر/منشورات اتحاد الكتاب العرب 2000/النسخة الإلكترونية.

[2] محمد العبد/المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة/مكتبة الآداب/القاهرة مصر 2006/ص:09

[3] Pierre Shoentjes_ Poétique de l'ironie Edition du Seuil_ 2001_p :18

[4] سعيد شوقي/بناء المفارقة في المسرحية الشعرية/إيتراك للطباعة والنشر/ط1/2001/ص:15

[5] نذكر منهم: فريدريك شليجل/كيركيجارد/ دي سي ميويك في النقد الغربي و سيزا قاسم في النقد العربي.

[6] يرى كثير من النقاد الغربيين و العرب أنّ المفارقة لا تكون إلاّ في النصوص التي تنتج عن رؤية متبصرة بوجودها في الحياة ثمّ تتبناها وسيلة فنيّة بلاغية في العمل الفنّي.

[7] دي سي ميويك/المفارقة و صفاتها/موسوعة المصطلح النقدي/المجلد الرابع/ترجمة عبد الواحد لؤلؤة/المؤسسة العربية للدراسات و النشر/بيروت لبنان 1993/ص:125

[8] نبيلة إبراهيم/فن القص في النظرية و التطبيق/مكتبة غريب/القاهرة

مصر/ص:196

[9] الجروتيسك : Grotesqueالغريـــب المضـــحك و نجد مصطلح :القبح كما في بعض المعجمات النقدية.

[10] المرجع السابق/ ص:198

[11] سيزا قاسم/ المفارقة في القص العربي المعاصر/مجلة فصول مج 2/عدد 2/ص:143

[12] الموقع الرسمي للكاتب:www.Yasminakhadra.com

[13] الموقع نفسه

[14] Youcef Merahi Qui êtes_vous Monsieur Khadra_Edition Sedia _Blida_Algerie 2007_p :18

[15] الشرق الأوسط/15 سبتمبر 2005/العدد:9788

[16] المرجع نفسه/ العدد نفسه

[17] إحداث الدهشة من أهمية وظائف المفارقة و علامات وجودها

[18] حسن حماد/المفارقة في النص الروائي نجيب محفوظ نموذجا/المجلس الأعلى للثقافة/ط1 2005 /القاهرة مصر/ص:08

[19] اخترنا مصطلح الاعتداء رغم وجود ألفاظ عديدة توحي بمعنى العنوان مثل:الهجوم،العملية،التفجير... لكنها عادة ما ترد مقترنة بأوصاف ك: الإرهابي أو الانتحـــاري مثلا.

[20] ينظر سلمان كاصد/عالم النص/دراسة بنيوية للأساليب السردية/دار الكندي للنشر والتوزيع الأردن/ص:15

[21] لفظ:Kamikaze استعمل في الحرب العالمية الثانية وصفا للانتحاريين اليابانيين الذين نفذوا الهجوم بالطائرات على ميناء" بيرل هاربر" بالولايات المتحدة الأمريكية.

[22] الموقع الرسمي للكاتب

[23] سعيد شوقي/بناء المفارقة في المسرحية الشعرية/ص:101

[24] Yasmina Khadra _ L'Attentat_ Eition Sedia_Blida_Algerie 2006_p :81

[25] Le roman_ p :112

[26] Le roman_ p : 112 113

[27] Le roman_ P : 63

[28] Le roman_ p :6

[29] le roman – p : 254

[30] نبيلة إبراهيم/ فن القص في النظرية و التطبيق/ ص:199